أبو ســـعيد أبو الخير

وشطحات المتصوفة

للدكتور جواد علي

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

ساقت هذه الفلسفة الجديدة : فلسفة المعرفة ، جماعة المتصوفة إلى تقرير نظرية جديدة هي نظرية « الحق واحد وإن تعددت مظاهره » وما دام الإنسان يتوصل إلى الحق فلا حاجة للأصفياء بالرسل والأنبياء . يقول أحدهم وهو السيد قاسم الأنوار : « قبل أن تبنى الخانقاه ، وقبل أن تنشأ أديرة الرومنيه التي هي أقدم أديرة الكون، كنت معي في أطوار الكائنات . فدرجة الأنبياء قد ارتفعت من بيننا ؛ إذا ما دمنا مجتمعين دائماً فما هي الفائدة من الرسل إذاً[١] .

ومتى توصل الإنسان إلى معرفة (حق اليقين) الذي هو الفناء المطلق[٢] تساوت الدرجات وأصبح المعلوم واحداً وتجلت الغاية من الأديان عموماً . فالأديان على اختلاف درجاتها تقصد غاية واحدة وهدفاً معيناً ، هو التوصل إلى معرفة الله ، تستوي في ذلك الصابئة واليهودية والنصرانية والإسلامية كما جاء :

عبادتنا شتّى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير[٣]

وإلى هذا المعنى ذهب (شمس تبريز) حيث قال : « لست بمسيحي ولا يهودي ولا مسلم »[٤] . وهذه النزعة الإنسانية التي توصل إليها متصوفة الإسلام هي نفس النزعة الإنسانية (Humanism) التي توصلت إليها متصوفة أوربا في القرون الوسطى . ثم المذهب الإنساني الفلسفي الذي تمثل فيما بعد على لسان الفيلسوف (هيردر) « Herder » ، وعلى لسان الفلسفة الإنكليزية ثم الأوربية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر للميلاد[٥] .

(١) Browne, Persion Literature vol 3, p, 477.

(٢) راجع تفسير ابن عربي القاهرة ١٣١٧ ج ٢ ص ٦٤ لسورة ٢٩ آية ٤٤ .

(٣) محاضرات عن الاسلام للمستشرق اليهودي المجري كولد زهير ص ١٧ .

(٤) راجع ديوان شمس تبريز ١٢٤ . Nicholson, The Mys-dcs of Islam 87

(٥) راجع دائرة المعارف البريطانية مادة فلسفة

وهكذا تساوت الأديان فلا فرق إذاً بين أن يكون الإنسان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً . وما دامت غاية الإنسان الاتصال بالله عن طريق المعرفة فالتصوف وحده هو الكفيل بذلك . فمن طريق التأمل بذات الله تتم المعرفة وتنال السعادة الأبدية ، أما الأديان والشرائع على رأي نفر من المتطرفين بآرائهم فإنها تحول بين الإنسان وبين معرفة الذات ، وتفرق بين اتصال العبد بالرب فهي عامل فتنة وخراب[١] .

وصنف جلال الدين الرومي البشر من حيث معرفة الخالق إلى صنفين :صنف تعلق بالطقوس والشرائع ، وصنف امتلأ قلبه وفاض بحب الله[٢] . ولابن العربي كلمات تشبه هذه الكلمات[٣] . وقد نسب ابن تيمية إلى أحد المتصوفة وهو التلمساني من تلامذة ابن عربي هذا القول : « القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا »[٤] على أن ابن تيمية من أعداء الفلسفة والتصوف ويجب أن ننظر إلى كلامه بشيء من التروي على ما أعتقد والحذر .

ونسبت إلى نفر من المتصوفة بعض الأقوال التي لا تلتئم مع ما هو مألوف . مثل قول حافظ :« اتركوا الإثنين والسبعين فرقة لأنها لا ترينا الحقيقة ، ولأنها تستمد وحيها من وحي الشياطين[٥] . ونسب إلى أبي سعيد أبي الخير قول يشبه هذا القول فقد قيل إنه قال : «ما دامت المساجد والمدارس باقية لا تتطرق إليها أيدي البلى فإن عمل الدراويش لا يتم . وما دام هنالك مؤمن وكافر فإنه لا يمكن أن يظهر على سطح الأرض مسلم حقيق أبداً »[٦] .

وفي أقوال أبي سعيد وأشعاره مواضع أخرى تشير إلى هذا النوع من التفكير الحر . وهذه الأقوال ولا شك هي التي أثارت غضب بعض العلماء عليه أمثال ابن حزم الظاهري والمؤرخ الشهير الحافظ الذهبي[٧] ولهذا السبب عينه قال عنه

(١) راجع عطار تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٥٩ س ١٢ ابن تيمية رسائل ١ ص ١٤٨ .

(٢) مثنوي ص ٨٣ .

(٣) الظاهرية للمستشرق كولد زهير ص ١٣٢ حيث تجد النص وكذلك محاضرات عن الاسلام ص ١٧٠

(٤) رسائل ابن تيمية رسالة ١ ص ١٤٥ .

(٥) حافظ ج ١ ص ٥٨٤ . محاضرات عن الاسلام ص ١٧١

(٦) Etrè vèl' 2, p, 157 1375 Nicholson' Studies in Islamic Mysticism Cambridge. 1—76.

(٧) السبكي ج ٤ ص ١٠ .

المستشرق نيكلسون فى كتابه « التصوف الإسلامى » وفى الفصل الذى عقده عنه فى « دائرة المعارف الإسلامية » بأنه « يمثل الآراء الحلولية المتطرفة التى جاء بها بايزيد البسطامى المتوفى عام ٢٦١ للهجرة (٨٧٤م) تلك الآراء التى يمتاز بها متصوفة الفرس بوجه عام . ولسنا بحاجة إلى أن نزيد أن أبا سعيد كان ينظر إلى الإسلام وغيره من الأديان المنزلة نظرة احتقار »[١] وهو قول ردد صداه المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون والمستشرق الإنكليزى إدوارد براون وأغلب المستشرقين المشتغلين بموضوع التصوف .

على أن من باب الحق والمنطق أن نقول بأن جماعة كبيرة من العلماء كانوا يثنون عليه ويذكرونه ذكراً جميلاً . أمثال : السبكى صاحب كتاب طبقات الشافعية الكبرى[٢] والسمعانى فى كتابه « الأنساب »[٣] وفريد الدين العطار فى كتابه تذكرة الأولياء[٤] وأمثالهم ؛ وقول هؤلاء طبعاً قول مقبول محترم لا يمكن أن يرد بأى حال من الأحوال .

أما أنصار التصوف وأصحاب مبدأ « حسن الظن من الإيمان » فإنهم يعتذرون عن هذه الأقوال ويفسرونها تفسيراً فيه حسن ظن ورجاء ، ويتجاوزون عنها ويرجئون أمرها إلى الله ، ويؤولونها تأويلاً ، ويحسبونها شطحة من شطحات اللسان . والشطحة عندهم « عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهو من زلات المحققين فإنها دعوى بحق يفصح بها العارف من غير إذن إلهى بطريق يشعر بالنباهة »[٥] وهم يؤولون كلام هؤلاء كما قلنا فيقولون : نعم ، فى ظاهر هذه الكلمات خروج عن المألوف والذوق ، ولكنهم لا يقصدون ظاهر هذه الألفاظ بل بواطنها وذلك لا يدركه إلا من سما فى العلم الإلهى وفى درجات المعرفة .

ثم قالوا : « وإن للقوم عبادات تفردوا بها واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم مخبر ببعض ما يحفى وتكشف معانيها بقول وجيز ، وإنما نقصد فى ذلك إلى معنى العبادة دون ما تتضمنه العبادة فإن مضمونها لا يدخل تحت الإشارة فضلاً عن الكشف »[١] وإن القوم فى حالة سكر فى الذات العلية[٢] وفى غيبوبة تامة[٣] .

قالوا ومن هذا القبيل قول سهل بن عبد الله التسترى إذ يقول : « أعرف تلامذتى من يوم ألست بربكم ، وأعرف من كان فى ذلك الموقف عن يمينى ومن كان عن شمالى ، ولم أزل من ذلك اليوم أرى تلامذتى وهم فى الأصلاب لم يحجبوا عنى إلى وقتى هذا »[٤] وقوله : « أشهدنى الله تعالى ما فى العلى وأنا ابن ست سنين ، ونظرت فى اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمانى سنين ، وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين ، ورأيت فى السبع المثانى حرفاً معجماً حارفيه الجن والإنس ففهمته وحمدت الله تعالى على معرفته ، وحركت ما سكن وسكنت ما تحرك بإذن الله تعالى وأنا ابن أربع عشرة سنة »[٥] .

وامتازت فلسفة هؤلاء المتصوفة أصحاب الذوق بأسلوب جديد مبتكر أخذ هو الشعر الغزلى التصوفى الذى أطلقوا عليه اسم « الغزل الصوفى » كما نعتوا الحب البرىء « بالحب الأفلاطونى » أو « الحب العذرى » وفيه الرمزية والخيال البعيد . ولنا فى باب « الغزل الصوفى » طائفة كبيرة من الشعراء . والتصوف فى حد ذاته نوع من نوع الشعر أو الفن ، ففيه عاطفة جامحة ؛ لذلك كان أكثر المتصوفة ينظمون نظماً دقيقاً فيه عاطفة دقيقة وإن كانوا قد خرجوا فيه كما خرجوا فى نثرهم عن القيود الدينية المألوفة والأساليب المتعارفة كما نجد ذلك فى شعر الحلاج[٦] وفى شعر محيى الدين بن عربى وفى شعر السهروردى وأمثالهم . ويكفينا فى هذا الباب ما نظمه الشيخ المتصوف سيدى ابراهيم الدسوق المتوفى

(١) دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية مجلد ١ ص ٢٠٤ .
(٢) ج ٤ ص ١٠ .
(٣) طبع بعناية تذكار جب ص ٥٥٠ .
(٤) طبع بعناية المستشرق براون ج ٢ ص ٣٢٢ .
(٥) التعريفات للسيد الشريف الجرجانى ص ٨٦ وكتاب اصطلاحات الصوفية الواردة فى الفتوحات المكية ص ١٧٧ .

(١) كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف تأليف أبى بكر محمد بن اسحق البخارى الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠ للهجرة ص ٨٠ .
(٢) راجع التعرف ص ٨٥ .
(٣) التعرف ص ٨٧ .
(٤) راجع طبقات الشعرانى ص ١٥٨ عن أقوال سهل راجع أيضاً التعرف لمذهب أهل التصوف (١٩٣٣) فى عدة مواضع من الكتاب .
(٥) نفس المصدر ص ١٥٨ عن سهل أيضا . Nicholson A. Literary History of the Arabs p, 392.
(٦) عن الحلاج L. Massignon, La Passion d' al-Hosayn Ibn Mansour Al-Halladj وكتبه الاخرى .

عام ٦٧٦ للهجرة[١] : فى هذا النظم أشياء كثيرة لا توافق ما هو مألوف لنا فى هذا القول من اتحاد الذات فى الإنسان وفى الأشياء . والقصيدة مرآة صافية لفكرة وحدة الوجود التى شاعت فى أوربا أيضاً واعتنقها جمهور من الفلاسفة والمفكرين ولا سيما أولئك الذين درسوا الآداب الشرقية واطلعوا على تراجم الأشعار الفارسية على الأخص كالشاعر غوته الذى دان بمذهب وحدة الوجود[٢] . يقول هذا المتصوف الزاهد الذى يرجع بنسبه إلى الإمام علىّ بن أبى طالب والذى تأثر بآراء من سبقه من كبار المتصوفة كالحلاج والسرىّ السقطى والجنيد البغدادى والشيخ عبد القادر الجيلى على الأخص فى جملة ما قاله هذه الأبيات :

تجلّى لى المحبوب فى كل وجهة ... فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منّى بكشف سرائرى ... فقال أتدرى من أنا قلت منيتى
فأنت منائى بل أنا أنت دائماً ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى
فقال كذاك الأمر لكنه إذا ... تعينت الأشياء كنت كنسختى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتى
فصرت فناء فى بقاء مؤبد ... لذات بديمومية سرمدية
وغيبنى عنى فأصبحت سائلاً ... لذاتى عن ذاتى لشغلى بغيبتى
وأنظر فى مرآة ذاتى مشاهداً ... لذاتى بذاتى وهى غاية بغيتى
فأغدو وأمرى بين أمرين وانف ... علوىّ تمحونى ووهمىّ مثبتى

ومنها :

أنا ذلك القطب المبارك أمره ... فإن مدار الكل من حول ذروتى

ومنها :

وبى قامت الأنباء فى كل أمة ... بمختلف الآراء والكل أمتى
ولا جامع إلا ولى فيه منبر ... وفى حضرة المختار فزت ببغيتى

ومنها :

بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة ... أجدد فيها حلة بعد حلة

ومنها :

نعم نشأتى فى الحب من قبل آدم
وسرّى فى الأكوان من قبل نشأتى
أنا كنت فى العلياء مع نور أحمد ... على الدرة البيضاء فى خلوتى

(١) راجع طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٥٨ .
(٢) راجع Miguel Asin, Islam and the Divine Comedy, Lonpon 1926

ثم يستمر على هذا النسق فيذكر أنه كان مع جميع الأنبياء ويختم قصيدته باسمه وبأنه القطب شيخ الوقت ابراهيم[١] .

وأبو سعيد أبو الخير من المبرزين فى الشعر الصوفى ، ويمتاز عن غيره من شعراء الفرس بابتداعه الشعر الصوفى عندهم[٢] وبنهجه منهجاً جديداً فى النظم حذا حذوه أكثر شعراء الفرس كفريد الدين العطار[٣] وجلال الدين الرومى وعمر الخيام[٤] .

وإذا صحت نسبة الرباعيات الفارسية إليه فيكون بذلك أول مؤسس لرباعيات المتصوفة وأول مبتكر لطريقة جديدة هى الطريقة الرمزية فى الشعر . ولكن هناك من يشك فى صحة نسبة الرباعيات إلى صاحبنا استناداً على رواية تقول بأن الناظم الأصلى لهذه الرباعيات هو أستاذ أبى سعيد أبو القاسم بشريس وهو متصوف أيضاً وأديب مشهور[٥] .

على أن شيئاً واحداً لا يمكن أن يتطرق إليه الشك هو أن أبا سعيد كان ينظم الشعر وكان يحفظ شيئاً كثيراً من شعر الفرس والعرب[٦] ، وأنه كان ضليعاً فى اللغة العربية وكان يجلس لتفسير القرآن . وبهذه المناسبة نقول إن تفسير القرآن على طريقة الصوفية هو تفسير خاص . ومن أشهر هذه التفاسير تفسير عبد الرحمن السلمى النيسابورى (٤١٢ هـ) أحد الأساتذة الذين درس عليهم أبو سعيد ونال الخرقة منه[٧] ولشهر هذا الشيخ برواية الأحاديث ولا سيما أحاديث الصوفية وقد اتهم لذلك بأنه كان يضع الأحاديث على لسان الرسول لتقوية مذهب التصوف (سنن الصوفية)[٨] . وتفسير محيى الدين بن عربى الشهير[٩] وتفسير نظام الدين الحسن

(١) طبقات الشعراني ج ١ ص ١٥٨ .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٣٥٤ .
(٣) راجع عنه براون فى كتابه تاريخ الأدب الفارسى ج ٣ ص ٨٨ ومواضع أخرى .
(٤) دائرة المعارف ج ١ ص ١٥٤
(٥) راجع Zhukowski حالات شيخ أبو سعيد ١٧٩٠ ص ٥٤
(٦) تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٢٢
(٧) ذهبي ، تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٤٩ Journal Asiatig, 1912, 583 . ويعتمد القشيرى في رسالته عليه كثيراً . راجع المقدمة
(٨) السيوطى اللآلئ المصنوعة ج ٢ ص ١٧٨ .
(٩) تفسير محى الدين بن عربى بولاق ١٢٨٣ فى جزئين ثم ١٣١٧

بن محمد النيسابوري (في أوائل القرن الثامن للهجرة)[١] وتفسير عبد الرازق الكاشي (الكاشاني)[٢].

وكما أن أصحاب الباطن (الباطنية) من المسلمين والحروفية فسروا القرآن تفسيراً يوافق آراءهم باعتبار أن للقرآن ظاهراً وباطنا وقالوا بأن الظاهر هو المفهوم لدى العامة وأن الباطن هو المقصود من القرآن ولدى الخاصة وحدهم (علم الباطن) أولئك الذين يعرفون (ما ظهر منه وما بطن) فكذلك المتصوفة فسروا القرآن تفسيراً خاصاً حيث كانوا يعمدون إلى التأويل دائماً تأويلا يتفق مع آرائهم ومشاربهم .

واتصل أبو سعيد على ما يروى بالمتصوف الشهير أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى عام ٤٦٥ للهجرة)[٣] « وقد تلقى القشيري أول الأمر هذا الزائر الجديد بشيء من الحذر والنفور ، ولكنه ائتلف به وأصبح صديقه الحميم فيما بعد ، وتلك خاتمة يلوح لنا أنها بعيدة الإحتمال »[٤].

حاول القشيري وهو من رجال التصوف في رسالته الشهيرة « الرسالة القشيرية » (كتبها سنة ٤٣٧ للهجرة) جمع خلاصة آراء وأفكار المتصوفة للتوفيق بين آراء المتصوفة وبين آراء جماع المسلمين والبرهنة على أن التصوف أصل الإسلام . وذكر طائفة من كبار المتصوفة بما فيهم الخلفاء الراشدون والأئمة العلويون[٥] وأكثر الصحابة ، وقد فاته أن التصوف الذي كان عليه في وقته لم يكن معروفاً بهذا الشكل في صدر الإسلام ، وأن الصحابة كانوا يؤاخذون الناس عليه كما فعل الخليفة عثمان بعامر بن عبد الله ابن قيس الذي ترهب وتزهد في البصرة وامتنع عن أكل اللحوم والزيد والجبن وكل منتوج للحيوان ، وأعرض عن الزواج[٦]. وعُرف « براهب الأمة » .

والتقى أبو سعيد بالفيلسوف ابن سينا على ما ذكره فريد الدين العطار في كتابه[٧]. والظاهر أن هذا اللقاء كان بنيسابور حيث أقام بها أبو سعيد محترماً مقرباً من عالمها الكبير إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني . وابن سينا الذي اشتهر بنظم الشعر باللغة العربية اشتهر بنظم الرباعيات بالفارسية فهو زميل منافس لصاحبنا المتصوف . ولعل هذه المنافسة هي التي أدّت إلى نفرة أبي سعيد من ابن سينا ، ثم إلى ردّه على ابن سينا برباعية من رباعياته المشهورة[١].

تمتع أبو سعيد بشهرة عظيمة في بلاد فارس حيث كان محط الرحال إلى أن جاءه الأجل المحتوم في سنة ٤٤٠ للهجرة فدفن في مسقط رأسه « ميهنة » وبذلك تم دخوله في عالم الفناء .

مات أبو سعيد فكتب حياة هذا المتصوف حفيده محمد بن أبي المنوّر ، وعلى هذه الترجمة اعتمد فريد الدين العطار في كتابه « تذكرة الأولياء » ، وجامي ملا نور الدين عبد الرحمن في كتابه « نفحات الأنس »[٢].

بغداد — الدكتور جواد علي

(١) راجع هذه الرباعية في Ettr, 1878, pp, 52
(٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١ ص ٣٥٢

(١) تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٢٢ . دائرة المعارف ج ١ ص ٣٥٣
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان
(٣) عدة نسخ خطية .
(٤) دائرة المعارف ج ١ ص ٣٥٣ عن الهجوي . راجع رسالته والتصوف الاسلامي للمستشرق نيكلسون
(٥) العبارة من دائرة المعارف ج ١ ص ٣٥٣
(٦) راجع رسالته حيث يذكر أسماء الصحابة في ضمن المتصوفة
(٧) عن عامر بن عبد القيس . راجع الطبري (الطبعة الأوربية ج ١ ص ٢٩٢٢ . ابن سعد طبقات ج ٧ ص ٧٤

صديقي القارئ

الكتب الآتية

ضرورية لثقافة فكرك ولسانك

وحي الرسالة : للأستاذ أحمد حسن الزيات ٤٠

آلام فرتر : ٤٠

رفائيل : ٤٠

اطلبها من إدارة « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة